يطلب خدمتي عليه أن يراجعني شخصيّاً. وإني أنجزت العمل الذي كلفني به (فيرانزولا) ولم تعد تربطني به علاقة. فصرخ فيرانزولا قائلاً: إنه لاينوي أن يستخدمني وأضاف:

- إياك أن تريني وجهك بعد اليوم.

وعندما ذكرته ببقية أجري المستحق، ضحك ساخراً فقلت:

-إني لقادر على إستخدام سيفي بنفس البراعة التي إستخدمتها في إستعمال العدد والأدوات لصياغة الحلي كما رأيتني.

وبينما نحن في أخذٍ وردٍ إتفق أن مَرّ رجل مسنّ يدعى السيد (أنطونيو دي سان مارينو) وكان أستاذاً (لفيرانزولا) وهو خير صائغ في روما. فسمع حجتيّ التي بذلت جهدي لوضعها أمامه بأوضح صورة، فحكم لي ونصح (فيرانزولا) بأن ينقدني بقية أجري. إلاّ أن الخصام إشتدّ وتسعّر بسبب ماظهر من أن (فيرانزولا) كان مبارزاً بارعاً أكثر منه صائغاً. إلاّ أن العقل تغلّب أخيراً بتمسكي وإصراري الذي أدى دوره فدفع أجري بالأخير. وبعد زمن عادت العلاقة بيني وبين فيرانزولا كما كانت وبقينا أصدقاء حتى إني صرتُ عرّاباً لوليده عندما طلب ذلك.

واصلت العمل مع الأستاذ (پاگولو آرساگو) وكسبت مالاً كثيراً كنت أرسل معظمه الى الوالد الكريم. وبعد أن أكملت سنتين رضخت لتوسلاته وعدت الى فلورنسا والى دكان (فرانشسكو سالمبيني) مرة أخرى. وكان ربحي كثيراً وركّزت جهودي لإغتراف المزيد من أسرار الفن وجددت علاقتي (بفرانشسكو دي فيليپو) وصرنا نخرج معاً. وقد أغرتني تلك الموسيقى اللعينة على تبديد الكثير من الوقت جرياً وراء اللهو والعبث. على إني كنت دائماً أحرص على تخصيص ساعات قليلة من الليل أو النهار للتتبع والدراسة.

في ذلك الزمن صنعت ماكان يطلق عليه في ذلك العهد إسم (مفتاح القلوب) وهو نطاق فضيّ عرضه نحو ثلاث أصابع تشده المتزوجة حديثاً في وسطها. وكان نقشه بنصف بروز ورصعتهُ بصور لطيفة على طوله. ومع أن الموصي به (رافاييللو لاپاجيّني Raffaello Lappaciun) لم يكن سخياً في دفع أجوره إلاّ أن الشهرة التي نلتها من ورائه كانت أكبر من أجزل العطاء عنه. وإشتغلت مع عدد كبير جداً من الصاغة في فلورنسا. ووجدت بينهم أناساً مستقيمين مثل أستاذي الأول (ماركوني) إلاّ إنني وجدت آخرين ممن تمتعوا بخير السمعة - يحاولون مع هذا دماري ولم يتعففوا على سرقتي بأخسّ الطرق كلما تسنح لهم الفرصة. فجانبتهم وتحاشيتهم ما وسعني ذلك وأنزلتهم منزلة اللصوص والعيّارين. على إن صائغاً وهو المدعو (جيوڤانباتستا سولياني Giovanbatista Sogliani) تفضّل مشكوراً فأخلى لي جانباً من دكانه في السوق الجديدة بالقرب من ضفة (لاندي). وفيه أنجزت صياغة حلي وتحف كثيرة في غاية الجمال ومكنتني أرباحي من رفع مستوى عيش أسرتي وقد أثار ذلك حقد إثنين من الأوغاد اللذين كنت قد تتلمذت عندهما من قبل وهما (سلڤادوري[٤٣] Salvadore) و(ميكيلي گواسكونتي Michele Guasconti). كانا يمتلكان ثلاثة دكاكين صياغة كبيرة مع أشغال رائجة رابحة.

(٤٣) في رسالة چلليني عن الفن (ص٤) يتكلم عن سلڤادوري هذا بغاية الطيب.

وعندما أدركتُ انهما يبيتان لي شراً قصدت رجلاً كريم الخصال أعرفه - شاكياً له الأمر وقلت أما كان عليهما أن يكتفيا بما سرقا منيّ تحت ستار الطيب الكاذب والتظاهر بالسماحة؟ وبلغهما هذا الكلام فراحا يتهدداني علناً قائلين إنهما سيرغماني على إبتلاع كلماتي، وبما إني كنت أجهل معنى الخوف فلم أبال بتهديدهما.

وإتفق مَرّة إني كنت واقفاً مسنداً جسمي الى دكان واحدٍ من هذين الصائغين فناداني وبدأ يشتمني ويتوعدني. فأجبت لو إنهما أحسنا معاملتي لحسن كلامي عنهما بين الناس وأشدت بصلاحهما وإستقامتهما إلاّ أنهما أقدما على شيء يخالف هذا وليلوما أنفسهما اذ لست انا الملوم. وفيما انا مسترسل في اقوالي اقبل فرد من اسرتهما يدعى (جيراردو گواسكونتي) كان يسوق بغلاً محمّلاً بالآجر - ربما جاء بتحريض منهما فوجهه نحوي وما أن أصبح محاذياً لي حتى أمالَ بالحمْل عليّ فأناخت الآجرات فوقي ونالني منها كبير أذى. وإستدرت في الحال فوجدته يضحك مقهقهاً فما كان منيّ إلاّ وسددت الى صدغه لكمة فسقط كالميت غائباً عن الوعي. ثم واجهت إبن عمه قائلاً:

- تلك هي الطريقة المثلى للتعامل مع أمثالكم أيها اللصوص الجبناء.

وبإعتمادهم على قوتهم العددية تظاهروا بالحملة عليّ. فغلى الدم في عروقي ومددت يدي الى خنجر صغير في حزامي وصحت بهم صيحةً راعدة:

- لو أقدم أحدكم على الخروج من الدكان، فعلى الآخر أن يذهب لإستدعاء الكاهن إذ لن تدرك الحاجة الى طبيب.

وأشاع قولي هذا الخوف فيهم فسمّرهم في مواضعهم ولم يجسر أحد على الخروج من الدكان ثم إني إنصرفت. فأسرع الأب وأبناؤه الى (مجلس الثمانية) وقدموا شكوى ضدي زعموا فيها إني قمت بهجوم مسلح عليهم في دكانهم وهو أمر لم يسمع به في فلورنسا.

فطلبني مجلس الثمانية للمثول امامه وراح اعضاؤه يوسعوني توبيخاً. وربما كان السبب في ذلك هو إني كنت أرتدي معطفاً[٤٤]. في حين كان غرمائي يلبسون العباءات والقلانس المدنية. أو لعلهم راجعوا أيضاً القضاة كلاً في منزله وتكلموا معهم بصورة خاصّة سراً، لا مثلي أنا القليل الخبرة الطاهر الذيل فإني لم أحاول مثلهم التكلم مع أي عضو ثقة منيّ بعدالة قضيتي ووضوح حقيّ.

فأجبت المجلس قائلاً إن الغضب أعماني وقتما إستمر جيراردو في إهانتي وكان كل ردّي إني لطمته لاغير ولا أظنني أستحق مثل هذا الزجرّ الشديد. ما ان خرجت من فمي كلمة (لطمة) حتى قال (پرنزيڤالي دللاّ ستوفي[٤٥] Prinzivalli della stufe) أحد القضاة مصححاً:

- إنك لكمته بقبضتك ولم تلطمه.

(٤٤) إن لم يكن الشخص عسكرياً أو محارباً محترفاً فإن إرتداءه معطفاً بدلاً من العباءة وهي زي المدنيين النهاري - يدخله في عداد الأشقياء والمستهترين.

(٤٥) واحد من أنصار آل مديتشي الأقوياء. دبّر مؤامرة لصالحهم ضدّ الگونفالونير سودريني. وأسند إليه اليساندور دوق فلورنسا منصباً في عضوية مجلس الشيوخ في ١٥٣٢ وكانت وفاته في ١٥٦١.

ثم دق الجرس فأمروا الجميع بالخروج. وتكلم (پرنزيڤالي) للمجلس مدافعاً عني فقال:
- فكروا أيها السادة بسذاجة هذا الرجل. فهو يتهم نفسه بأنه لطم أحدهم متوهماً إنها أخفّ عقوبة من اللكمة. إذ في الواقع ان عقوبة اللطمة إن وقعت في السوق الجديد هي خمسة وعشرون كراوناً. في حين أن اللكمة شيء بسيط وعقوبتها خفيفة. إنه شاب موهوب ذكي ويعيل أسرته بمثابرته على العمل. وإني أرجو من الله أن يكثر من أمثاله في مدينتنا فهم قليلون.

كان يوجد بين القضاة عدد من أولئك الجمهوريين ذوي القلانس المفتولة إنحازوا الى خصومي بالتوسطات والشفاعات الكاذبة. ولأن خصومي من حزب الراهب ساڤونارولا[٤٦] وكان يسرّهم جداً إرسالي الى السجن بحكم ثقيل. إلاّ أن (پرنزيڤالي) الشهم النبيل أحبط تدبيرهم. فبدلاً من ذلك فرضوا عليّ دفع غرامة صغيرة مقدارها أربع وزنات[٤٧] من الدقيق تدفع الى دير (موراتي[٤٨] Murati). وعندما طلبت للمثول أمامهم ثانية أمرني أن أسكت ولا أنطق بحرف لئلا أتعرض لسخطه وقال إن عليّ القبول بالحكم الصادر. وبعد ذلك وُجّه اليّ توبيخ شديد، ثم أرسلونا الى المستشار وأنا لا انفك أردد لنفسي: "إنها لطمة وليست لكمة!" وهكذا تركنا القضاة وهم مغرقون في الضحك.

أمرنا المستشار نيابة عن مجلس القضاة بأن نقدم كفيلاً بضمانٍ مالي. وكنت أنا وحدي الذي حكم بتأدية أربع وزنات. فشعرت كمن تؤخذ منه روحُه غيلةً: ولما لم يكن باليد حيلة فقد بعثت بطلب واحدٍ من أبناء عمومتي وهو طبيب جراحيّ يدعى (انيبالي Annibale) والد (ليبرودورو ليبرودوري Librodoro Librodori) ليكون كفيلاً. إلاّ إنه رفض فجنّ جنوبي وإنتفخت كالصلّ من فرط الإنفعال. وحزمت أمري على الإتيان بعمل يائس. وما هذا إلاّ دليل على ان المكتوب لنا في النجوم لايؤثر في مجرى حياتنا فحسب بل يحكمها حكماً شاملاً.

وكان حنقي يتصاعد كُلما فكرت في الأيادي التي أسدتها أسرتي لـ(أنيبالي) هذا - حتى إني عزمت عزماً أكيداً على أمر جَلل وأنا بطبعي عصبي المزاج سريع الثورة. إنتظرت حتى غادر القضاة المجلس لتناول الغداء. وما ان وجدت نفسي وحيداً، لايقوم على حراستي موظف ما، إنسللت من القصر ونار الحقد تمزّق أحشائي وهرعت الى دكاني فتسلّحت بخنجر صغير، وتوجهت قاصداً منزل أعدائي وكان يعلو دكّانهم. فوجدتهم يتناولون طعام الغداء. ما أن دخلت عليهم حتى لحظني (جيراردو) الفتى الذي بدء الشجار فحمل عليَّ. فما كان منيّ إلاّ وسددت طعنةً الى صدره فغاب

(٤٦) جيرولامو ساڤونارولا (١٤٥٢-١٤٩٨) مصلح ديني إيطالي. ورئيس دير الدومنيكان في فلورنسا منذ ١٤٩١. كان يعظ بحماسة ضدّ التفسخ الخلقي في الكنيسة والدولة. دبّر ثورة في مدينة فلورنسا طرد على اثرها آل مديتشي السنة ١٤٩٤ بعد أن أبدى دوقها پييرو عجزاً عن مواجهة الحرب التي شنها شارل الثامن الفرنسي. وهوجم قصره ونهب. أسس ساڤونا رولا الجمهورية التي كرّهت الناس بها لقوانينها القاسية جداً. وأصدر البابا الكساندر السادس قرار حرمان بحقه (١٤٩٧) ففقد ثقة المواطنين وحوكم وشُنق ثم أحرقت جثته.

(٤٧) في الحقيقة كان مقدار الغرامة إثنتي عشرة وزنة كما جاء في السجلات. أنظر باچي ص٣٢.

(٤٨) دير شهير في فلورنسا عرفت راهباته بشدة التحفظ والتعبد. وفيه توفيت السيدة الشهيرة كاترينا سفورزا. أم جيوڤاني دي مديتشي وجدة كوزيمو دوق فلورنسا الأكبر.

النصْل مخترقاً صداره وسترته حتى قميصه. لكنه لم يمسّ بشرته أو يصيبه بأي خدش في الواقع. على إني توهمت من الشكل الذي هبطت به يدي ومن النصل الغائب في طيّات ثيابه وصوت التمزّق - إني أصبته بجرح بليغ وسقط الى الأرض وقد جُنّ رعباً. فصرختُ:

- ويل لكم أيها الغادرون. حان حَيْنُكُم وسأقتلكم جميعاً.

وخيل لهم كلهّم: الأب والأم والأخوات إنه يوم الدينونة قد جاء. فخرّوا على ركبهم ركّعاً وراحوا يطلبون الرحمة دون تحفظ صارخين. لم أجد من المروءة في شيء أن العرض لهم بسوء بعد أن تلاشت روح المقاومة فيهم وبجيراردو وهو مستلقٍ على الأرض مثل جثةٍ. فدرت على عقبيّ وتركت المنزل والغيظ يعصف بي الى حَدّ الجنون. وفي الزقاق وجدت البقية من الأهل قد تجمعوا إثني عشر أو يزيدون في إنتظاري، هذا ممسك بمجرفة من حديد وهذا مسلّح بقضيب فولاذي وجماعة منهم بالمطارق وآخرون بالفؤوس والعصي فحملتُ عليهم وأنا أخور كالثور الهائج. فأوقعت أربعة منهم أو خمسة على الأرض وسقطتُ معهم وأنا لا أتوقف عن كيل الطعنات بخنجري، وأطبق عليّ الآخرون الذين كانوا وقوفاً بما وسعهم من عونٍ ونالوا منيّ بكلتا اليدين بمطارقهم وفؤوسهم، ومجارفهم إلاّ أن عناية الله التي تتولى الأمور أحياناً فتمنع المقدّر، شاءت أن لايُحدث أحدنا بالآخر أي أذى يذكر. وكل ما فقدته هو قبعتي التي سقطت أثناء المعركة فغنمها العدو وأوسعها ضرباً وركلاً وطعناً. وإن كانوا قد نكصوا عنها خائفين في البدء. ثم إنهم صاروا يتفقدون الجريح منهم والقتيل، فوجدوا جميعهم سالمين.[٤٩]

إنصرفت سالكاً الزقاق المؤدي الى (سانتا ماريا نوڤللاّ)[٥٠]. فإذا بي وجهاً لوجه والراهب (اليسّو ستروزّي Alesso Strozzi[٥١]) ولم يكن لي به سابق معرفة. إلاّ إني إستجرت به وإستحلفته بمحبّة الله التي تجمعنا أن ينقذ حياتي لأني إرتكبت إثماً عظيماً. فأجابني الراهب الشهم: "لا خوف عليك البتة. حتى لو إرتكبت أعظم معصيةٍ وكل شرّ في هذه الدنيا فإنك ستكون آمناً في صومعتي".

وبعد حوالي الساعة عقد مجلس الثمانية إجتماعاً خاصاً وأصدر لائحة إتهام مريعة بحقي لم يسبق أن أصدر مثلها من قبل مهدداً بأشد العقاب كلّ من يأويني أو يعرف مكاني ولايخبر عني دون أيّ إعتبار لمركزه الإجتماعي أو وظيفته، ويصرف النظر عن صفة المكان الذي أختفي فيه. فقصد أبي المسكين المنكوب شأن الوالد الطيب - دار القضاء وجثا أمام القضاء مسترحماً الرأفة بإبنه الفتى البائس. فنهض واحد من هؤلاء ذوي الرؤوس الحارة منتصباً ووجه الكلام البذيء لأبي التاعس وهو يهزّ عفيرة قلنسوته ذات التلافيف:

- قم! أخرج من هنا فوراً. فغداً سوف نرسل إبنك الى ساحة الإعدام.

(٤٩) هذا غير صحيح فإن چلليني أصاب (جيراردو گواسكونتي) ورجلاً آخر بجرح بليغ جداً. فحكم عليه مجلس الثمانية بالموت. (أنظر باچي ص٣٢).

(٥٠) سيأتي الكلام عن هذه الكاتدرائية فيما بعد.

(٥١) هو الذي غدر فيما بعد بالراهب (بنوتّو دي فوياتو) وسيأتي الكلام عن ذلك.

فأجاب الوالد المسكين بصرامة وأنفة:

- إنكم ستعملون بمشيئة الله لا أكثر.

فأجاب القاضي:

- إن ما قلتهُ هو الذي رسمه الله بالتأكيد.

بالأخير قال له الوالد "إن سلواي هي إنك لاتدري ماهي مشيئة الله" ثم خرج وبدء يفتش عنيّ مع (پييرو ابن چيوڤاني لاندي) أحبّ أصدقائي وأقربهم، ذلك الذي ينزل في نفسي منزلة الشقيق بل وأكثر. أخفى پييرو تحت عباءته سيفاً بتّاراً وزرداً محبوكاً وبعد أن عثرا عليّ أفضى اليّ والدي الجسور بما آلت إليه الأمور وما قال له القضاة. ثم طبع قبلة على جبيني وكلتا عينيّ ومنحني بركته الأبوية قائلاً:

- فلتعتصم بقوة الربّ وليكن في عونك.

ثم شدّ الحسام في وسطي وساعدني على إرتداء الزرد وأضاف يقول:

- ولدي الحبيب. أنت بهذين صرت مستعداً إمّا للحياة وإمّا للموت.

ولم يستطع (پييرو) حبس دموعه فقد ظلّت تسيل على خديه طول الوقت وكان قد جاءني بعشرة كراونات. فطلبت منه إن ينتف شعرات من ذقني وهي بواكير لحيتي - جلباً للحظّ. ثم ألبسني الراهب (أليسوّ) مسوح الرهبان وأرفق بي أحد الرهبان المقيمين دليلاً ومرافقاً. فتركت الدير وإجتزت باب پراتو راجلاً على طول أسوار المدينة الى ميدان سان گاللّو San Gallo، ثم توقّلت سفح (مونتوي Montui) وفي واحد من أول المنازل بلغتها وجدت المدعو (گراسوچيو Grassucio) وهو أخٌ للسيد (بندريتّو دا مونتي ڤاركي Benderetto da Monte Varchi)[٥٢] فأسرعت حالاً أخلع مسوح الرهبان وعدتُ مدنياً مرةً أخرى ثم امتطينا الجوادين المهيّأين لنا وإنطلقنا في رحلتنا الليلية الى (سينا) وفيها ودّعني (كراسوچيو) وعاد الى فلورنسا مبشراً والدي بسلامة وصولي. فكاد الوالد يخرج عن طوره من الفرح. ولم يصبر بل أسرع يفتش عن عضو مجلس الثمانية الذي أهانه وأوسعه شتماً وقد خال الفترة دهراً حتى التقى به فبادره قائلاً:

- أرأيت يا أنطونيو؟ الله وحده يعلم ما حصل لأبني لا أنت.

فأجابه هذا:

- صبراً صبراً. وسترى عندما نضع أيدينا عليه مرّة أخرى.

فقال الوالد:

- في خلال ذلك سأبقى شاكراً الله لأنه أنقذه منكم.

(٥٢) الشاعر الشهير والأديب والمؤرخ (١٥٠٣-١٥٦٥) ويعرف عادة بإسم (ڤاركي). كان صديقاً وفياً لچلليني فكتب فيه مرثية عندما بلغه خبر وفاته الكاذب. ومما يذكر له بالفضل إمتناعه عن إجراء اي تنقيح في هذه المذكرات التي أرسلها له چلليني ليرى فيها رأياً.

وفي (سـيينا) إنتظرت سـاعي بريد روما. حتى إذا وصـل إنضـممت إليـه وبعـد عـبورنا پـاليـا Paglia[٥٣] إلتقينا بالرسول الذي كـان يحمل نبأ انتخاب الپاپا الجديد وكان الپاپا كليمنت[٥٤]. ثم بعد أن وصلت روما رحت أبحث لي عن عمل فـوجدته في دكان صياغة يعود للأستاذ (سانتي Santi) الذي كان قـد توفي وحَلّ محله أحد أبنائه. ولم يكن هذا الإبن يزاول الحرفة وإنما أوكل العـمل بها الى شاب من (ييزي Jesi) يدعى (لوكـانيـولو Lucagnolo) قـدم من الريف غـلامـاً صـغـيـراً وتتلمـذ على الأسـتـاذ (سانتي). كان (لوكانيولو) هذا شاباً قصير القامة متين الألواح شديد العضل. لم أجد بين الصنّاع من يدانيـه في المهارة والإبداع وفي أسلوبه بالعمل الخالي من التعـقيد المتـميـز بحسن الذوق وسـموّ الخيال. إلاّ أنه قصر دائرة عمله على القطع الكبيرة كالأواني والمزهريات الجميلة والقصاع وماشاكلها.

بعد مباشرتي العمل. أوكل اليّ عـمل شمعدانات لأسقف (سلامنكا Salanmanca) المواطن الإسپاني. وقـد أثقلتـهـا بالزخارف والنقوش كـمـا يقـضي به الذوق السـائد في ذلك الوقت. ومـا حـصـل بعـدهـا أن تلمـيذاً لـ(رافـائيـل) يدعـى (جـيـانفـرانشـسكو)[٥٥] ويلقب عـادة بـ(إل فـاتوري Il Fatiore) وكـان رسـامـاً مُجيداً تعرّف بي فوقعت في نفسه موقعاً حسناً وشملني بعطفه وكان صديقاً حميماً لـ(مزكاتّي) أسقف (سلامانكا) هذا[٥٦] وبفضل ذلك كلفت بإشغال عديدة من قبل أعـيان المدينة ووجهائها فـزاد الله في رزقي وربحت مالاً كثيراً.

في تلك الأيـام كنت مـعـتـاداً الذهاب للرسم أحـيـانـاً في كـاپللا مـيكالـنجلو[٥٧] وأحـيـانـاً في منزل (أغـسطينو كـيـجي Agostino chigi) السـيـيني[٥٧] حيث كـان ثمّ مـجمـوعـة كـبـيـرة من اللوحـات والصـور الجميلة من ريشة الرسام العظيم (رافائيل الأوربيني). كنت أختلف الى المنزل في أيام الأعياد فحسب لأن (چيزموندو Gismondo) شقيق (اگستينو) كان يسـكن فيـه. وكان أصحاب المنزل يتباهون ويفخرون حينما يشاهدون شباباً من أمثالي يقصدون منزلهم للدراسة.

وفي ذات يوم دنت منيّ زوجة السـيد چيـزمـوندو التي كـانت قد رأتني أخـتلف الى المنزل كـثـيـراً. وأخذت تتـأمل رسومي ثم سألتني أنحّاتٌ أنا أم رسّام وكانت سيدة في غاية الجمال والظرف ولما قلت لها إني صائغ أجابت أن يدي يد رسام أكثر منها يد صائغ.

ثم أمرت واحدة من وصيفاتها بجلب حلية ذهبية على شكل زنبقة جميلة مكفتة بالماسات فعرضتها عليّ وطلبت منيّ تقويمها فقدّرتها بثمانمائة كراون. فقالت هذا سعرها بالضبط ثم سألتني عما إذا كنت

(٥٣) نهر يقع جنوب مدينة أورڤييتو.

(٥٤) أعني أن چلليني كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وعشرين عاماً.

(٥٥) جيانفرانشسكو پنيّ (١٤٩٦-١٥٣٦) رسام فلورنسي وتلميذ رافائيل المفضل ووارث جزء من تركتـه. اجتـهد هو و(گويليو رومانو) في إكمال بعض صور رافائيل التي تركها ناقصة. أنظر سيرته في (ڤاساري ج: ٤).

(٥٦) هو فرانشسكو بوبادللاً قدم روما في ١٥١٧ للمشاركة في مجمع اللاتيران. وكان مع الپاپا كليمنت السابع في حصن سان أنجلو أثناء حصار ١٥٢٧.

(٥٧) وهي كـاپللا سسـتيني المشـهـورة. أمـا منزل (كـيـچي) فـقـد تم بناؤه في حـدود ١٥٠١ وفق تصـاميم وضـعـهـا (پيروزي). وبعد العام (١٥٨٠) عرف القصر بإسم ڤيلاً فارنسينا Villa Farnesina.

أجد في نفسي المهارة الكافية لإعادة تكفيت الألماسات بحلية جميلة حقّاً. فقلت أن ذلك ليسعدني. وشرعتُ وهي واقفة أرسمُ مخططاً للحلية صغيراً وقد ركبني الزهو من فرط إستمتاعي بالحديث مع مثل هذه السيدة البارعة الجمال والعالية الخلق. بعد أن فرغت من الرسم إنضمت إلينا سيدة رومانية أخرى في غاية الملاحة. نزلت من الطابق الثاني وسألت (المادونا پورشيا) عَمّا يشغلها[٥٨] فأجابت وهي تبتسم:

– إني أستمتع بمتابعة هذا الشاب المهذّب وهو يرسم. إنه حسن الخلق قدر ما هو وسيم.

عادت اليّ الجراءة فجأة ومع أنها كانت مشوبة بشيءٍ من التواضع الحقيقي فقد كسا وجهي إحمرارُ وقلت:

– كيفما أنا ياسيدتي، فسأبقى دوماً رهن إشارتك بل وأكثر من متلهف لخدمتك.

فكسا وجه السيدة الفاضلة إحمرار الخجل بدورها وقالت:

– بالتأكيد إني أرغب في ذلك.

ثم دفعت اليّ بالزنبقة وأشارت بأن آخذها معي ثم نقدتني من جيبها عشرين كراوناً وأردفت تقول:

– صغ الحلية وفق التصميم الذي رسمته واحتفظ لي بالذهب القديم الذي ينتظم الألماسات.

فتدخلت هنا السيدة الأخرى بقولها:

– لو كانت رجلاي في حذاء هذا الفتى، فلن أتردد في أن أعدو فّاراً بهذه الغنيمة.

فردت (المادونا پورشيا) قائلة إن الفضائل يندر أن تجتمع بالرذائل في شخص واحدٍ وإن أقدمتُ على مثل هذا العمل سيكون مناقضاً تماماً لوجهي الوسيم ومظهري الموحي بالأمانة. ثم دارت على عقيبها وقد أمسكت بيد السيدة الأخرى وقالت وهي تتبسم بعذوبة:

– مع السلامة يا بنڤنوتو!

قضيت جانباً من الوقت في الرسم الذي كنت أعمله منقولاً عن صورة (جوپتر) في لوحة رافائيل الأوربيني.[٥٩] وبعد فراغي عدتُ لأصنع نموذجاً شمعياً صغيراً للحلية المقترحة لكي تكوّن السيدة فكرة حقيقية عما ستبدو به عند الفراغ منها وأخذته إليها وكانت السيدة الأخرى موجودة وقد سر كلتاهما بما عرضت ومدحتاني الى الحدّ الذي بثّ في نفسي الجرأة على التعهد بأن تكون الحلية أجمل من نموذجها ضعفين.

شرعت في صياغتها. وبعد إثني عشر يوماً أكملتها وكانت كما ذكرتُ قبلاً على شكل زنبقة زينتها بصور أوجه وملائك صغيرة وحيوانات كلها مطعمة بالميناء لتبدو الأحجار الألماسية التي تؤلف الزهرة بأبهى مظهر من جمالها.

(٥٨) إن زوج چيزموندو كيچي تدعى سولپيشيا Sulpizia وهي شقيقة پورشيا (أنظر باكي ص٣٩) والقصر في الواقع يعد آية من آيات الرينسانس المعماري. واللوحة التي يشير إليها چلليني هي لرافائيل رسمها في ١٥١٧ في سقف القاعة الأولى.

(٥٩) يبدو هذا الوجه الآن في تلك اللوحة التي تمثل (كيوبيد وپسايكي) في القصر نفسه.

أظهر (لوكانيولو) الصائغ القدير الذي تحدثت من قبل عن براعته -الإستخفاف بعملي أثناء قيامي بصياغة الحلية، وقال إن هذا مضيعة للوقت وظلّ يردد على مسامعي بأني سأجني شهرة وربحاً يزيدان كثيراً عما أجنيه الآن لو إني واصلت معاونته في صياغة مزهرياته الكبيرة كما كنت أفعل سابقاً. فكان جوابي على هذا قولي إني قادر على الصياغة في هذا المجال عندما أشعر برغبة في مزاولته. إلاّ أن ما أشتغله الآن لايتأتى للمرء كلّ يوم. ومهما يكن من أمرٍ فالشهرة التي تتأتى منها لاتقل عن الشهرة المتأتية من عمل مزهرياته الفضية الكبيرة. بل وإن ربحها أكثر بكثير. ووجد (لوكانيولو) ما اقوله سخيفاً ومدعاة للضحك وقال:

- ستدرك الحقيقة يابنڤنوتو. ذلك لأننا بدأنا العمل في وقت واحد أنت بالحلية وأنا بالمزهرية. وسأتعجل في عملي به حتى نفرغ منهما في وقتٍ واحدٍ وعندئذ سيتضح لنا النتيجة من مقدار ما سأحصل عليه من مزهريتي، ومن مقدار ما ستكسبه من حليتك.

فأجبت إن المباراة مع صائغ قدير مثله تورثني أعظم السرور وسنرى أينا المصيب في آخر الشوط.

وتبادلنا إبتسامة إستخفاف وانكب كل منّا الى عمله بإصرار ومثابرة. ولم تمرّ عشرة أيام قضيناها متحرّقين مشتاقين الى الخاتمة كما تسري الحمى المحرقة في الجسم، إلاّ وأخرجنا قطعتين فنيتين في غاية الأناقة والجمال. كان ما أخرجته يد زميلي إناء كبير الحجم أوصى بصنعه الپاپا كليمنت ليوضع على مائدة طعامه لترمى فيه العظام وقشور الفاكهة والفضلات المتخلفة وهو للمظهر والزينة أكثر منه للحاجة. وقد زين بيدين جميلتين ودارت حوله صور صغيرة وكبيرة وزخارف نباتية مُتشابكة. كان عملاً رائعاً دقيقاً إنتزع منيّ إقراراً بأنه أجمل ماوقعت عليه عيني من نوعه. وخيّل لـ(لوكانيولو) بعد هذا الثناء أني إعترفت بخطئي ونزلت عن رأيي فقال:

- حليتك في نظري لاتقلّ جمالاً عن إنائي. إلاّ أننا لن نلبث أن نتبين الفرق بين الأثنين.

ثم حَمَل إناءه الى الپاپا، فحاز رضاه التام وأمر أن تدفع له أتعابه في الحال مقدراً بحسب التعرفة المصطلح عليها في السوق. أما أنا فأخذت حليتي الى المادونا (پورشيا) فذهلت حين وقعت أنظارها عليها وأكدت لي أن عملي فاق وعدي بمراحل. ثم أردفت تقول:

-أطلب ما تشاء من أجر. فما تستحق في إعتقادي كثيرٌ ولو منحتك قلعة لما كانت كافية. وعليك أن تطلب شيئاً لا أعجز عنه.

وإبتسمت وإستطردت تقول:

- على أية حال أطلب ما أستطيعه.

فأجبتها إن أفضل مكافأة عندي هي أن أرى كم هي راضية. ثم إبتسمتُ وإنحنيتُ بإحترام وقلت وأنا أهمّ بالإنصراف:

- حسبي هذا الجزاء.

فإلتفتتْ الى صاحبتها وقالت لها:

- أرأيت الآن أيّ نوع من الخلق رافق الفضائل التي حكمنا بأنها تكمن فيه؟ هذا الخلق لايمت الى

الرذيلة في شيء.

لقد أدهشهما مسلكي حقّاً. وأضافت مادونا پورشيا تقول:

- عزيزي (بنڤنوتو) أسبقَ لك أن سمعت القول المأثور؟ عندما يتصدّق الفقير على الغني، يضحك إبليس!

فأجبت:

- مع هذا فقد واجه إبليس كثيراً من المتاعب وسوء الحظّ، وإني لأريد أن أراه يضحك هذه المرّة فحسب.

على أنها عقّبت على قولي وأنا أهمّ بالإنصراف إنها لاتعتزم هذه المرّة أن تعطف عليه.

عدت الى الحانوت فوجدت (لوكانيولو) ومعه المبلغ الذي دفع له ثمن الإناء في صرّةٍ وما أن دخلت حتى ابتدرني بقوله:

- تعال هنا ودعنا نقارن مادفع لك عن حليتك بما دفع لي عن إنائي.

فطلبتُ منه إبقاء نقوده حيث هي حتى يوم الغد قائلاً إن حليتي في إعتقادي هي بين أمثالها تعادل في الجمال إناءه بين أضرابه. ولذلك فأنا أتوقع أن لا أنال من الأجرة مايقلّ عن أجرته.

في اليوم التالي أرسلت (مادونا پورشيا) واحداً من رؤساء خدّامها الى حانوتي فدعاني الى خارجه ووضع في يدي صرّة مفعمة بالمال. مصحوبة برسالة من سيدته فيها تقول إنها لاتقبل أن يضحك إبليس لنفسه. ومن بين الثناء المستطاب الجدير بمثل هذه السيدة قالت إن ما أرسلته لي لايوازي الأجر الذي أستحقه بل يسوى أكثر. ومرت الدقائق كالدهر على (لوكانيولو) قبل أن يغدو وفي وسعه مقارنة مكسبي بمكسبه. وإندفع الى داخل الحانوت حيث إجتمع أكثر من عشرة من الجيران والشغيلة بداعي الشوق الى نتيجة الرهان ورفع صرته وهو يضحك ضحكة الهازيء ويصيح "بخ، بخ، بخ" ثلاثاً أو أربعاً. ثم أخرج النقود وأنشأ يقلبها ظهراً لبطن وأسقطها على المنضدة برنين وضوضاء. وقد بلغ مجموعها خمسة وعشرين گويليو Guilio، ظانا بأن ماحصلت عليه لا يتعدى أربعة أو خمسة كراونات كبيرة[٦٠].

وببرودة دم لم توثر فيها صيحاته أو إبتسامات المتفرجين وأنظارهم الحديدة. إختلست نظرة الى محتويات صرتي فوجدتها تغصّ بالنقد الذهبيّ. فسرتُ الهوينا الى المنضدة ونظري مصوّب الى الأرض ثم رفعت صرتي بكل هدوء وتركت قطع الذهب تتساقط على المنضدة كما ينسكب الدقيق من فم الطاحونة. وأحصى المبلغ فإذا به ضعف مانال (لوكانيولو) وبنتيجة هذا تحولت كلّ الأنظار التي كانت ترمقني بإستخفاف الى (لوكانيولو) حالاً. وراح الجميع يقولون:

- لقد دفع أجر (بنڤنوتو) بالذهب. وهي تعادل ضعف ما تقاضيتَه من أجور. يالمنظرها المهيب الذي يفوق منظر نقودك!

خيّل لي أن صاحبي المسكين سيسقط ميتاً من فرط الخجل والغيرة. في الواقع أن ثلث أجري هذا،

(٦٠) يطلق على العملة الرائجة إصطلاح di Maneto وهو المقصود هنا.

هو له بحكم وجودي في حانوته فالعادة جرت أن ينال الصائغ ثلثي الأجر ويذهب الباقي الى صاحب الحانوت. إلاّ أن حسده المحرق تغلّب على طمعه في حين كان منطق الأمور يقضي بعكس ذلك، إذا أدخلنا في حسابنا أن (لوكانيولو) هو إبن لفلاّح من (بيزي) ليس إلاّ. راح يلعن صنعته ويشتم الناس الذين لقنوها له. قائلاً إنه سيكفّ بعد اليوم عن صنع هذه الصحاف الكبيرة وسينصرف بكلّيته إلى عمل هذه التوافه القذرة الصغيرة التي أقوم أنا بصنعها مادام ربحها كثيراً بهذا الشكل. ولم يكن غضبي من كلامه بأقل منه فرددت عليه بقولي: كل طائرٍ يصدح بأنغامه الخاصّة. وكلامه إنما يدل على منبته الوضيع. وتحديته مؤكداً بأني قادر على تحقيق أعظم النجاح في صنع توافهه الفاجرة التي تخصص فيها في حين يتعذرّ عليه مجاراتي أو بلوغ مهارتي في صنع توافهي الفاجرة الدقيقة. قلت هذا ودرت على عقبي غاضباً ومتوعداً إياه بما سيرى مني في القريب العاجل وأنشأ الحاضرون ينحون عليه باللوم ويرمونه بالتقصير في حقي وبأنه لايسوى شروى نقير في حين أثنوا عليّ لأني برهنت على إِني الرجل الجديد بالإعتماد.

توجهت الى زيارة (مادونا پورشيا)[٦١] في يوم التالي لشكرها. وقلت لها إنها فعلت بعكس قول المثل. فحين أردت أنا إِضحاك أبليس، جعلته هي ينكر ربه ثانية. وضحكنا سويّة بنفس راضية. ثم إنها عهدت اليّ بالمزيد من العمل في صياغة حلي جميلة لها.

في عين الوقت تمكنت عن طريق تلاميذ (رفائيل) من حمل أسقف (سلامانكا) على تكليفي بطست كبير للماء وهو من النوع الذي يطلق عليه (اكويريچيا Acquereccia) ويستعمل كحلية لخزانة أدوات المائدة. ورسم الأسقف أن يصنع له أثنان بحجم واحد وعهد بالثاني الى (لوكانيولو) واليّ بالأول. وقد زوّدنا بالتصميم الرسام (جيانفرانشسكو) الذي نوهت بذكره.

تكرّم عليَّ مواطن ميلانيّ يدعى (جيوڤان پييرو تاكّا Giovan Piero Taeca) بزاوية في حانوته. وباشرت العمل في الطست ببالغ الحماسة. قمت بحساب لنقودي فأخرجت منها ما يكفي لسدّ حاجاتي وأرسلت الباقي مساعدةً منيّ لأبي المسكين في فلورنسا.

وتشاء الصدف أنه إلتقى وهو يتسلمها بواحد من أولئك المجانين أعضاء مجلس الثمانية عندما أثرتُ تلك الزوبعة الصغيرة. وهو عين الرجل الذي أهان الوالد وجرح شعوره وأقسم أنه سيصر على إرسالي الى ساحة الإعدام. وكان أباً لأولاد لا نفع يرجى منهم ولهذا قال له الوالد ملمّحاً بما يقرب من التصريح:

– البشر معرّض دائماً للسقطات ولاسيما للسريعي الغضب الذين هم على حق كإبني. إلاّ أن حياته منذ ذلك الوقت برهنت على إني أحسنت تربيته. وإني لادعو الله لأجلك، ليكون سلوك أبنائك تجاهك لا أسوء ولا أفضل من سلوك أبنائي معي. لقد علمني الله كيف أربيهم وأنقذهم من يدك الغاشمة من حيث لم تتوقع ذلك وحفظهم لي بعد أن خانتني قواي.

(٦١) كان زوج هذه السيدة مصرفياً شهيراً لا في إيطاليا وحدها بل في أوروپا والشرق. فضلاً عن كونه من هواة الفنّ المتحمسين وقصره هذا الذي بُني بتصميم وإشراف پيروزي (١٥٠٨-١٥١١). كان منتجعاً للپاپاوات والكرادلة.

وبعد أن تركه كتب لي يخبرني بكلّ ما وقع له، وإستحلفني بحبّ الله أن أُمارس قليلاً من الموسيقى بين آن وآخر كيلا أضيع هذا الفن الرفيع الذي عانى الأمرّين في تلقينه لي. وكانت رسالته حافلة بعبارات رقيقة للغاية يُعرب فيها عن حُبّه الأبوي حتى أن عينيّ إخضلّتا بالدموع وصممت على أن أسعده فيما يتعلق بالموسيقى قبل أن يحين أجله. والله لايتوانى عن تحقيق الرغبات النبيلة للبشر حين تطلب منه بإيمانٍ راسخ وإخلاص.

لم يكن معي أثناء إشتغالي بطست (سلامانكا) الجميل غير صبيٍّ مساعدٍ. إتخذته خِلفةً نزولاً عند إلحاح بعض الأصدقاء وخلافاً لرغبتي وكان يدعى (پاولينو Paulino) لايتجاوز عمره الرابعة عشرة. وهو إبن رجل من أهالي (روما) يعيش على مدخولاته الخاصّة. كان (پاولينو) هذا يتمتع بأعلى خلق، وبإستقامة لانظير لها، وصورته في غاية الوسامة مما لم اقع على مثيل له من قبل. إن دماثته وحسن تربيته، وجمال صورته وحبّه الشديد لي، دفعني الى التعلق به الى درجة صعب عليّ إحتمالها. أحببته حُبّاً جنونياً بحيث وجدتني مدفوعاً الى مزاولة الموسيقى مجدداً لأجله فقد كان ذلك يسعده ولكي أتمتع بالتأمل في قسمات وجهه وهي في العادة حزينة صارمة. فما أن يصدح الناي بأنغامي حتى يشيع البشر في وجهه وتنفرج قسماته عن إبتسامة خلاّبة عذبة. فلا أعود أستغرب الأساطير السخيفة التي كتبها الأغريق عن آلهتهم. والواقع لو أن (پاولينو) ظلّ في قيد الحياة اليوم لأوحى بالمزيد والعجيب من أمثالها.

كان له شقيقة تدعى (فاوستينا Faustina) لا أظنّ (فاوستينا)[٦٢] الأقدمين التي نقرأ عنها في كتبهم بكثير من الضجّة، تفوقها جمالاً. وكنت معتاداً زيارة بستان كرومهم بين آن وآخر ومما إستنتجت إن أباها وهو رجل فاضل في غاية النبل ماكان يتردد في أن أكون خَتَنَهُ. كل هذا جعلني أزاول الموسيقى أكثر من أي وقتٍ مضى خلافاً للعادة.

في ذلك الحين إتصل بي شخص يدعى (جياناكومو Gionia Como) وهو عازف ناي من مواطني (جيزينا)[٦٣] في خدمة الپاپا وكان موسيقياً بارعاً، أرسل لي رسالة بطريق (لورنزو) البوقيّ من (لوكّا) الذي هو الآن في خدمة دوق فلورنسا، يسألني عما إذا كنت مستعداً لمساعدتهم في العزف بمناسبة عيد الفيراگوستو Ferragosto[٦٤] لبعض الأدوار الدينية من الموتيت Motet[٦٥] الجميلة جداً مما اختاروه - على أن أتولى النفخ بطبقة الصَيّاح[٦٦] في زرنايَ. فأبديت كامل استعدادي للإنضمام

(٦٢) فلاڤيا ماكسيما فاوستا (حدود ٢٩٨-٣٢٦م) إمبراطورة رومانية زوج قسطنطين الأول لم تكن قويمة الخلق أو عفيفة. وقد حُكم عليها بالموت. وتمّ بتنفيذه خنقاً في حوض ماء حار. (هذا إن لم يكن قصد الكاتب إمرأة أخرى غيرها).

(٦٣) Cesena: هي الآن بليدة تقع على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً شمال شرق فلورنسا.

(٦٤) والأصل فيراي أوگستا Feriae Augsta وهو من أعياد روما المعروفة ويقع في الأول من آب كل سنة. ولايُعدّ الآن من الأعياد الشعبية الهامة.

(٦٥) قطعة غنائية تصاحبها الآلات الموسيقية وتُعزف أثناء القداس.

(٦٦) أي اللحن العالي الرفيع ويطبق عليه إصطلاح Soprano.

إليهم مع إني كنت أتحرق شوقاً للفراغ من طست الأسقف. فالموسيقى فن رائع على أية حال وإني لأرغب كذلك في مسرّة الوالد. وقضينا ثمانية أيام في التمرين معاً قبل حلول العيد، كل يومٍ مقدار ساعتين. وفي اليوم المعين توجهنا الى (بلڤديري Belvedere[٦٧]) ورحنا نعزف أدوار الموتيت التي كنّا قد تمرنّا عليها - أثناء ماكان البابا كليمنت يتناول الغداء. وقد أتقنّا الأداء بشكل دفع قداسته الى الإقرار بأنه لم يسمع قط أداءً موسيقياً بمثل هذه البراعة والتناسق بين الآلات. ثم إستدعى (جيانا كومو) إليه وسأله كيف وأين عثر على نافخ حاذق بالزرناي مثلي وإستفسر منه عن هويّتي فأفضى إليه جياناكومو بكامل اسمي. فقال البابا مستغرباً:

- إذن فهو إبن الأستاذ جيوڤاني؟

فأجاب (جياناكومو) بالإيجاب فأبدى البابا رغبتَه في أن أنضمّ إلى الجوق. فأجاب (جياناكومو) على هذا بقوله:

- بهذا لا أستطيع أن أعدك يا صاحب القداسة. لأن حرفته ومورد رزقه هو الصياغة وهي تستغرق منه كل وقته. وأضيف الى هذا أنه صائغ من الدرجة الأولى وربحه من صنعته يزيد كثيراً عما قد يكسب من مزاولة الموسيقى.

- وإني لهذه الصنعة التي لم أكن أتوقعها أزداد رغبةً في ضمّه الى خدمتي. أدفع له عين الأجر الذي يدفع للبقية. وقل له عنّي أني مستخدمه وسأكلفه في حرفته الأخرى ما يجعله مشغولاً طول وقته.

ثم دفع إليه بصرّة في منديل فيها مائة كراون ذهبي من سكة البابا الخاصّة وقال له:

- وزّعها بالتساوي لينال (بنڤنوتو) حصةً كاملةً.

وإنصرف (جيانا كومو) من لدنه وأقبل عليّ ينقل لي كلام قداسته عني. ثم قسّم المبلغ بين ثمانيتنا وأضاف وهو يسلمني أجري:

- سأثبت أسمك في عداد جوقنا.

فأجبته بقولي:

- فلنرجيء القضية الآن، وسأعلمك بقراري غداً.

وإفترقنا، وسرت في سبيلي وأنا أقلّب الأمر من شتىّ وجوهه. هل أقبل أم أرفض. وصرت أفكر كم سيربكني الأمر لو أني أنصرفت عن دراساتي الفنية. وفي الليلة التالية ظهر لي الوالد في حلم: وكان يبكي بلوعةٍ ويتوسل بي أن أمضي في هذا السبيل الجديد حُبّا بالله وإكراماً له. وقد قلت له كما خيل لي ليس ثم قوّة تحملني على ذلك. فتبدلت سحنته فجأة فإمتلأتُ رُعباً وأنا أسمعه يقول:

- إن لم تطعني فإنك تعلم عواقب لعنة الأب وإن أطعت فإني سأصبّ بركاتي عليك صبّاً.

عندما إستيقظت من نومي استولى عليّ خوف شديد فأسرعت لإثبات إسمي في الجوق وكتبت للوالد الشيخ بذلك. وإستطار فرحاً وصار يهذي وإعتلّ حتى أشرف على الموت. وكتب لي بأنه هو الآخر حلم حلماً مشابهاً.

(٦٧) مقصورة الفاتيكان بنيت على عهد الباباوين أنوسنت الثامن ويوليوس الثاني (١٤٨٤-١٥٣).

بعدما أرضيت الوالد الكريم بتحقيق ظنّه فيّ اعتقدت أن أموري ستسير من نجاح الى نجاح وإني سأتوقّل سلّم المجد والشهرة. فإنكببت على عملي في إناء أسقف (سلامانكا) أصل الليل بأطراف النهار. كان هذا الأسقف إنساناً عجيباً. فهو فاحش الغنى صعب الإرضاء جداً، دَأب يوميّاً على إرسال شخصٍ للاستفسار عما أعمل. وفي إحدى المرّات لم يجدني رسوله فتفجّرت كوامن غيظه وحلف بأن يسحب العمل مني ويُنيطه بغيري لإكماله وكلّ ذلك هو بسبب الموسيقى لعنة الله عليها، فقد كنت أنفق أوقاتاً فيها.

على كلٍّ ثابرت على العمل به ليلاً ونهاراً حتى بلغت به المرحلة التي تمكنني من إراءته له. فكانت النتيجة أن زاد شوقه الى الإستعجال به وكثر إلحاحه حتى إني ندمت على عرضه. وبنهاية ثلاثة أشهر تمّ الإناء، وبدا رائعاً إذ صببت فيه كلّ مهارتي. حلّيته بنقوش عجيبة لصغار الحيوانات وأوراق النبات والأقنعة. ثم بعثت به فوراً صحبة غلامي (پاولينو) الى الصائغ الخبير (لوكانيولو). فأنهى إليه رسالتي الشفوية هذه برقّته وسحره:

- أي سيدي (لوكانيولو) إن أستاذي (بنڤنوتو) يقول: كما وعدك في السابق. دونك نموذجاً من مكوّراتك وهو الآن ينتظر منك أن تريه بعضاً من قاذوراته الحقيرة التافهة.

أمسك (لوكانيولو) بالإناء وتأمله مليّاً بنظر الفاحص الخبير ثم قال لپاولينو:

- ولدي الظريف. قل لأستاذك بأنه صائغ حاذق بارع. وإني لأرجو ان لايبخل عليّ بصداقته ولنتناسَ الذي حصل.

فأبلغني فتاي بالرسالة فأفرحتني جداً. وأخذت الإناء الى (سلامانكا) فأمر بأن يقوّم وشارك (لوكانيولو) في التقدير ورفع ثمنه كثيراً وإمتدحه بشكل قد أعجز أنا عن مثله. ثم تناول (سلامانكا) الإناء وقال مفصحاً عن طبعه الإسپاني الغليظ:

- قسماً بالله لأؤخرنَّ دفع أجره بقدر ما تأخر في صنعه.

لما سمعت قوله هذا غُمّ على عقلي ورحت ألعن كل إسپانيا وكل من ينتصر لهذه البلاد أو ينتمي إليها.

من البدع التي إخترعتها في الإناء مقبض يتألف من قطعة واحدة أكثرت زخرفته وجعلته يقف منتصباً بواسطة نابض (زنبرك) فوق الفوهة. وفي ذات يوم كان هذا الحبر يعرض الإناء على بعض النبلاء الإسبان مزهواً وبعد ان ترك العزفة عبثت يد أحدهم بالمقبض الجميل النابض الرقيق ذلك عبثاً خشناً فإنكسر. ولما إطّلع الأسقف على التلف أمر رئيس خدمه بحمله إلى الأستاذ الذي صنعه لإصلاحه فوراً ودفع الأجر الذي يسميه الصانع إن لم يتعطل فيه. وهكذا وقع الإناء في يدي ثانية ووعدت بإصلاحه على الفور وأنجزته. كان قد جيء به قبل موعد الغداء. وقبل المغرب بساعتين دخل عليّ الرسول وهو يلعن ويصخب قائلاً إن (سلامانكا) لم يدعه في راحة وقد قطع المسافة اليّ ركضاً وتصبب عرقاً فالأسقف يريد أن يريه لبعض السادة. ولم يدعني الرسول أنطق بكلمة واحدة وكان يصيح بي ملحفاً:

- أسرع! أسرع! عجلّ عليّ بالآناء.

وأنا الذي كنت قد قررت إهتبال فرصتي ولم يكن لدي رغبة في تسليمه له. قلت إني غير مستعجل. فضاقت نفس رئيس الخدم وإشتدّ غضبه وأتى حركة كمن يهمّ بتجريد سيفه بواحدة من يديه، وشق طريقه الى داخل الحانوت عنوةً بيده الأخرى فأسرعت الى إعتراض سبيله وسددت سلاحي إليه وصحت به صيحة شديدة:

- لن أدعه يخرج من يدي. أذهب فقل لسيّدك الحبر أن يدفع لي أجري المستحق وإلاّ فإنه لن يراه.

وتبيّن له إن تهديده لاجدوى فيه فلجأ الى الملاينة وأخذ يتوسل بي وكأنه يتضرع تحت قدميّ الصليب ويبذل الوعود مؤكداً إنه سيتعقب بنفسه مسألة تسديد أجوري لو اني سلمته الآناء الآن. إلا إنه لم يزحزحني عن موقفي. وظللت أردد ماقلته سابقاً بأني سأعيده عندما أتسلّم أجوري كاملةً. أخيراً يئس منيّ وأقسم بأنه سيعود على رأس مايكفي من الاسپان لتقطيعي إرباً. ثم أسرع يعدو وتركني وأنا مصمم على الدفاع حتى الرمق الأخير. ذلك لأني كنت مصدقاً ما سمعته عن الروح الإعتدائية والطبيعة الفتاكة التي أُثرت عنهم. فحشوت طبنجة صغيرة ممتازة كنت أصطاد بها وقلت لنفسي:

- لقد سرقني ملكي وأتعابي وسأبيع منه حياتي أيضاً.

وفيما كنت على هذه الحال من القلق ظهر على المرسح أسبان جبناء يقودهم ضابط أمرهم بصلافة إسپانية أصيلة أن يقتحموا الدكان ويستولوا على الإناء ويوسعوني ضرباً. عندما سمعت هذا شهرت سلاحي الناري وصحت بهم:

- الويل لكم أيها اللؤماء الفجرة. أبهذا الشكل إذن تنهبون الدكاكين والمنازل في مدينة مثل روما؟ أي لصّ منكم يهمّ بالتحرك نحو هذا الباب سأرديه قتيلاً.

ثم سددت فوهة سلاحي الى صدر الضابط كأني أهمّ بإطلاق النار وأضفت:

- وأما أنت يا رئيس الحراميّة. فستكون أول ضحية.

فما كان منه إلاّ وأعمل مهمازيه في خاصرة حصانه. وفرّ هارباً لايلوي. وخرج كلّ الجيران على الضجّة فضلاً عن بعض السادة من عابري السبيل وإجتمعوا ينتخي بعضهم بعضاً قائلين لي:

- أقتل الفجرة اللئام ونحن ظهيرٌ لك.

وأحدثت اللهجة الحماسية المخلصة التي شاعت في هذه العبارة أثرها في الأسپان فإمتلكهم رعبٌ عظيم ولم يسعهم إلاّ الإنسحاب. وبناء على ما وقع لم يكن ثم بدّ من أن يقصّوا على الأسقف الحكاية. وكان رجلاً سريع الغضب فإنهال على الخدم والجنود تأنيباً وتقريعاً أولاً لمحاولتهم إرتكاب مثل هذا الإعتداء. وثانياً لأنهم بعد أن أقدموا عليه لم يمضوا فيه حتى النهاية.

ثم وصل الرسام الذي كان وسيطاً في العمل وقد طلب منه الأسقف أن يقصدني ويبلغني عنه هذه الرسالة: إن لم أسلم الإناء فسيجعل مني أشلاء وأوصالاً أكبرها أذني. وإن جئته به فسينقدني أجري في الحال. إلاّ أن هذا التهديد لم يرهبني ولم يحرك شعرة في رأسي وأفهمت الرسول بأني سأعرض

الأمر على البابا دون تردد.

في النهاية تلاشى غضبه وزال خوفي. وقطع لي بعض النبلاء في روما عنه عهداً بأنه سيدفع أجري ولن يُلحق بي أي أذىً. فتسلحت بخنجرٍ ماضٍ وأرتديت زردي وأخذت سمتي الى قصر الأسقف.

دخلت يتبعني (پاولينو) حاملاً الإناء الفضيّ فوجدت كل من في القصر قد تجمعوا وهم في الإنتظار. دخلت وكأني أمرّ خلال دائرة البروج السماوية. أحدهم بدا كالأسد، والآخر كالعقرب وثالث كالسرطان وهكذا الى إن وجدتني أواجه الكاهن الوغد ذاك، فأنشأ يقذف بصاقاً من الشتائم كالسيل الدافق مما يُنتظر من أي كاهن إسپاني. إلاّ إني كنت أحدق في الأرض وأبيت أن أنطق بكلمة. الأمر الذي زاده هياجاً وإنفعالاً. ثم أمر بأن يؤتى بأدوات الكتابة وأشار بأن أكتب بخط يدي مايفيد إني راضٍ تماماً بالأجور المدفوعة لي. وهنا رفعتُ رأسي وقلت: بكلّ طيبة خاطر سأكتب ذلك عندما أرى شكل نقوده. فغلت مراجل غيظه ونفرت الدماء من وجهه. وأنثالت التهديدات والمناورات بلا نهاية. على إني أستوفيت أجري وكتبت إقراراً بذلك وخرجت راضياً مغتبطاً.

بعد هذا أُبلغ البابا بالحكاية. وكان قد رأى الإناء قبلاً دون أن يذكروا له هوية صانعه. دُهش ورفعني بمدحه والثناء عليّ الى السماء وصرّح علنا بأنه يكنّ لي وداً خاصاً. وبنتيجة ذلك أدرك أسقف (سلامانكا) الأسف على ما بدر منه تجاهي وحاول المصالحة بواسطة الرسام نفسه وإعادة علاقاتنا كالسابق ووعد بتكليفي بأشغال هامة له. فأجبت إنه ليسرّني سماع هذا القول لكن شريطة أن يكون الدفع مقدّماً. ووصل هذا الحديث أيضاً الى أسماع البابا وجعله يضجّ مقهقهاً.

وحدّث الكردينال (چيبو Cibo)(٦٨) الذي كان عنده في تلك المناسبة بحكاية الشجار مع الأسقف. ثم إلتفت الى أحد موظفيه وطلب منه أن يعهد إليّ بأشغالٍ للبلاط بإستمرار. وبعث الكردينال (چيبو) في طلبي فتبادلنا الطليّ الشيق من الأحاديث وفي الختام عهد اليّ بصنع إناء كبير له يفوق حجماً ذاك الذي صنعته للأسقف. كما كلفني الكردينال (كورنارو Cornaro)(٦٩) بعمل إناء آخر مثله وتبعهما عدد كبير آخر من الكرادلة أخصّ بالذكر منهم الكردينالين (ريدولفي Ridolfi) و(سالڤياتي)(٧٠) فقد عهد اليّ بأعمال. وجنيتُ من ذلك أرباحاً كثيرة.

نصحتني (مادونا پورشيا) التي أسلفت ذكرها بإتخاذ دكان مستقلّ. فعملتُ بإقتراحها. ولم أتقاعس قطّ عن خدمة هذه السيدة الكريمة الرفيعة الخصال فكانت تجزل لي العطاء. في الواقع إني على أغلب تقدير مدين لها بذيوع صيتي وإشتهار أمري. وفي تلك الفترة تعرفت بالسينور (گابريللي چيزيرينو Gabriele Ceaserino) گونفالونير (روما)(٧١) ونمت بيننا صداقة حميمة. فصنعت له تحفاً كثيرة،

(٦٨) نوه چلليني بهذا الإناء وإناء سلامانكا في رسالته. وچيبو هو إبن أخ لليون العاشر.

(٦٩) هو إبن أخ ملكة قبرص. توفي في البندقية إذ لجأ إليها هرباً من الطاعون.

(٧٠) كلاهما من أبناء إخوة البابا ليون العاشر.

٧١) گونفالونير لقب حاكم روما. وربما كانت هذه الميدالية هي عين الميدالية المحفوظة في متحف ڤيينا (أنظر پلوّن، ص١٤٠).

من أبرزها ميدالية كبيرة من الذهب ثُبّتت في مقدمة القبعة. نُقشت عليها صورة (ليدا Leda)[٧٢] وبجعتها. وكان إغتباطه بها يفوق الحدود وأصرّ على أن تُقوّم لئلا يغمط حقيّ ولا أنال الأجر الذي أستحقه. وبسبب دقة صنعتها غالى أرباب الصنعة في تقدير قيمتها بحيث فاق ماتوقعته بمراحل. فبقيت في يدي ولم أحصل على شيء لقاء أتعابي. وعانت عين المصير الذي عاناه إناء (سلامانكا) على أني لن أتطرق الى هذه الحكايات لئلا تأخذ الحيز الذي خصصته للأهم.

ومع أن ما أنا في سبيله قد يعتبر شذوذاً عن الحرفة التي إمتهنتها. فأنا أريد أن أكتب حول كل ناحية من نواحي حياتي. ولذلك عليّ أن أرسم بإيجاز وإقتضاب صوراً للقاريء. لحوادث أخرى من حياتي دون الدخول في التفاصيل. الحاصل في صبيحة عيد القديس يوحَنّا[٧٣] كنت أتناول طعام الغداء مع عدد كبير من أهل بلدي منهم الرّسام والنحّات والصائغ وغيرهم من مختلف الصناعات الأخرى. وكان بين البارزين فيهم الرّسام روسو[٧٤] وجيانفرانشسكو تلميذ رافائيل الأوربيني عملت على جمع سائرهم من غير دعوة رسميّة ورحنا نلهو ونمزح فيما بيننا جرياً على عادة الناس في مثل هذه الأعياد الكبيرة. وإتفق أن مَرّ بنا وسط هذا الإحتفال جندي خفيف العقل أبله من كتيبة (رينزو دا چيري Rienzo da Ceri)[٧٥] فدنا منّا يتسمع الى لهونا وأخذ يسخر منّا ويصبّ الشتائم على الفلورنسيين. ولما كنت صاحب الدعوة وهؤلاء السادة الموقرون ضيوف عندي فقد عددت الإهانة موجهة إليّ شخصيّاً. فخرجت بخفة ومن دون أن يلحظني أحد ثم إعترضت سبيله. وكان يقف الى جانبه بَغيٌ وهو ماضٍ في سخره السمج بقصد إضحاكها. قصدته رأساً وسألته عما إذا كان هو ذلك الفتى الذي يجد في نفسه الجرأة الكافية لسبّ الفلورنسيين؟ فأجاب في الحال:

- أنا هو ذاك الرجل.

فرفعت يدي وأهويت على وجهه بلطمة وأنا أقول:

- إذن فأنا هذا الرجل!

وبلمحة عين كان سيف كل منّا في يده. وما كدنا نبدأ نزالنا حتى فرقّ الناس ما بيننا وكلهم منحاز الى جانبي. فقد رأوا بأم أعينهم إني صاحب الحق.

في اليوم التالي جاءتني منه دعوة للبراز. فتقبلتها بكلّ شوق قائلاً إنه لعمل أستطيع أن أنفض منه يدي بوقت أسرع بكثير من إنجاز أي عملٍ آخر يمتّ الى حرفتي المعتادة. وقصدت لتويّ رجلاً متقدماً في العمر عالي الخلق يدعى (بيڤيلاكوا Bevilacqua) أُثر عنه أنّه كان أبرع حملة السيف في إيطاليا. خاض أكثر من عشرين معركة في زمانه وخرج منها جميعاً مرفوع الرأس. هذا الرجل القويم

(٧٢) في أساطير الإغريق هي زوج تياندر ملك سپارطة، تعلق بها جوپتر الذي جاءها على هيئة بجعة فولدت له كاستور وبوللوس وهيلين وكليمنتسترا.

(٧٣) أهم أعياد فلورنسا. لأن هذا القديس هو شفيع المدينة.

(٧٤) جيوڤاني باتستا دي أياكوپو ري روسّي (١٤٩٤-١٥٤٩) ولد في فلورنسا. وكلّفه فرنسوا الأول ملك فرنسا بزخرفة قصر فونتنبلو.

(٧٥) واحد من رجال الحرب المغامرين المشهورين المرتزقة. وكان في ذلك الزمن قد باع خدماته من الفرنسيين.

الخلق كان من أخلص أصدقائي. وقد عرفني صائغاً إلاّ إنه كان يقوم بدور الوسيط في بعض المخاصمات العنيفة التي وقعت لي.

ما أن وقع نظره عليّ حتى هتف قائلاً:

- أي بنڤنوتو العزيز لو وجب عليك أن تبارز (مارس) نفسه لما شككتُ بأنك ستخرج من النزال مشرّفاً. عرفتك منذ سنين عدة فما وجدتك تختصم على الباطل.

وإتخذته شاهداً وإنطلقنا الى الموضع المتفق عليه وكلانا مسلّح. ولكن لم تُرق قطرة دمٍ فقد أقبل خصمي وأعلن إنسحابه وخرجت بشكل مشرف. ولن أخوض في مزيد من هذه التفاصيل رغم طرافتها وغرابتها بين أمثالها لأني أريد أن أقتصد في جهدي حتى أخصّ به فنّي؛ فهو السبب الذي يدفعني الآن للكتابة. وفي هذا المجال لديّ الكثير الجديد بالحديث.

دفعتني روح المنافسة الشريفة في صنع شيء أضاهي به بل أتفوق حتى على ذلك الصائغ البارع (لوكانيولو)، على ألاّ أترك في الوقت نفسه مزاولة فن الجوهرية العجيب الذي تخصصت فيه. فأصبت في كلا الإتجاهين المال الكثير والشهرة التي هي أهم من الربح. وكنت أعتمد على خيالي في التصميم غير مقلدٍ أحداً.

في ذلك الزمن كان في روما مواطن بيروجي(٧٦) يُعرف بإسم (لاوتيزيو Lautizio) تخصص في فرع من الفن لايضارعه فيه أحد في الدنيا هو صنع الأختام. والعادة جرت في روما أن يكون لكلّ كردينال ختم خاص يُنقش عليه أسمه وشعاره بحجم كف غلام في الثانية عشرة مع بعض التهاويل والصور إضافةً الى شعاره كما أسلفتُ. والختم الجيد يسوي عادة مائة كراون وأكثر. وعاودتني حمّى المنافسة الشريفة لتدفعني الى مباراة هذا الفنان. وإن كانت الصنعة بعيدة كل البعد عن عالم الصياغة و(لاوتيزيو) هذا لم يكن يعرف فرعاً آخر من الفن غير حفر الأختام. بدأت أتمرن على الحفر وكان يكلفني جهداً ومشقة عظيمتين إلاّ إني لم أكلّ بل مضيت قدماً ولم أقتصد في مجهودي، بحثا عن المعرفة وإستجلاباً للربح.

وكان في روما أيضاً فنان آخر من (ميلان) حاذق من الدرجة الأولى يدعى كارادسو Caradosso(٧٧) متخصص في الميداليات، يحفرها بالمنقَر على رقائق معدنية وغير ذلك مما يجري مجراه وكان يصنع الپاكسات Paxes(٧٨) بحفر نصف بارز وصوراً للسيد المسيح بطول اليد، يقطعها من رقائق الذهب الأبريز يصنعها بمهارة فائقة جعلتني أسلّم له بالأستاذية في هذا الفن من دون قريع أو منازع. وكنت أشدّ شوقاً الى منافسته من أي فنان آخر. وكان ثمّ أيضاً أساتذة في صنع ميداليات من الفولاذ

(٧٦) بيروجيا: مدينة معروفة تقع في نصف الطريق بين روما وفلورنسا الى الشرق.

(٧٧) صانع مداليات شهير يعرف عادة بإسم (أمبروجوفوپا) وبخصوص حكاية چلليني عن لقبه ورأيه فيه. راجع رسالته في الصياغة (ص١٧ و ٤٥ و ٥١).

(٧٨) رقائق معدنية صغيرة تنقش عليها صور القديسين والذخائر المقدسة تعلق كإيقونات في بيوت العبادة بإيطاليا ليلثمها المصلون.

وهذه هي مجرد تجارب ودليل صحيح يقود الى مزاولة صناعة سكّ النقود. وقد صممتُ على أن أضرب بسهمٍ في كل هذه الفنون.

يأتي أخيراً فن الطلاء الرائع بالميناء؛ وفي هذا المجال لم أجد أحداً يبرز فيه على مواطن فلورنسي يدعى (أمريگو Amerigo). لم أتعرف الى هذا الرجل قطّ. إلاّ إني كنت على معرفة تامة بعمله الممتاز. ولم أرَ في أي بقعة من بقاع الأرض عمل أي إنسان يداني كمال عمله إلاّ بمراحل طويلة. إن الطلاء بالميناء هو عملية شاقة للغاية. إلاّ إني لم أهتم وحوّلت طاقاتي إليها لإتقان الصنعة. ومع المشقة التي كنت أتكبدها فقد كنت أشعر بلذة كبيرة وأعتبر ممارستي نوعاً من أنواع التسلية والترويح عن النفس. هذا الموقف منّي هو نتيجة الموهبة الخاصة التي حباني بها الله من مزاج صحيّ ورجاحة عقلٍ بحيث كان بإمكاني بلوغ إربي في كلّ ما خطر ببالي عمله.

هذه الفنون التي عددتها يختلف واحدها عن الآخر إختلافاً بيّناً ومن كان متقناً واحداً منها ثم تحول الى آخر فلن ينجح قطّ في الوصول الى مستوى الفنّ الذي هو متقنه. على إني جاهدت بكلّ ما في وسعي لأكون صانعاً قديراً في كلها. وفي الوقت المناسب سأثبت كيف حققت هذا النجاح.

في ذلك الوقت وأنا ما زلتُ شاباً في حدود الثالثة والعشرين. إنتشر في روما وباء الطاعون وصار يفتك بالناس فتكاً ذريعاً فكان يموت به عدة آلاف يومياً[٧٩] فذعرتُ لهذا بعض الشيء. وبدأت أنشد إزالة ما بي من قلق بممارسة رياضةٍ وجدتها ممتعة للغاية. على إن هناك أسباباً لذلك سأخبر بها، وقد تمّ ذلك على النحو التالي: كنت في أيام الأعياد أجد رغبة عندي في الخروج وإرتياد مواقع الأنصاب والآثار القديمة وإعتدت أن أستنسخ عنها. إما بعمل نماذج شمعيّة أو بالرسم على الورق. كانت تلك المواقع مجرد خرائب وأنقاض مهجورة عششت فيها أسراب من اليمام. فزيّن لي فكري أن أتصيد منها بسلاحي الناري لتكون لي طعاماً فأتجنب الإحتكاك بالناس مخافة العدوى. فكنت أحمّل بندقيتي عاتق (پاولينو) وننطلق معاً الى الخرائب. ويا ما أكثر المرّات التي عدنا ونحن محمّلان باليمام السمين. ما كنت أرغب في حشو بندقيتي بأكثر من بندقةٍ واحدة. ولذلك فإن صيدي الناجح كان نتيجة دقة تصويبي. كان لديّ بندقية مستقيمة من صنعي، صقيلة الداخل ومن الخارج تبرق كالمرآة. وكنت كذلك أصنع بارودي بيدي وقد إكتشفت في أثناء ذلك خواصاً وأسراراً عجيبة مازالت خفية حتى يومنا هذا... إني لا أريد التوسع في هذا الموضوع كثيراً. وحسبي أن أذكر ما أريد به إثارة الدهشة والعجب في نفوس الصيادين الماهرين والمطلعين. وإليك هو: عندما أحشو بندقيتي بالبارود وهو لايزيد وزناً عن خُمس وزن البندقة. يكون في إمكاني أن أصيب هدفي بمقتلٍ على مسافة مائتي ياردة.

ومع أن اللذة العظيمة التي كنت أجنيها من هذه النزهات. هددت بصرفي عن عملي ودراساتي - وهذا ما نجم عنها فعلاً. إلاّ أنها أعطتني من جهة أخرى أكثر مما أخذت مني بكثير. فقد طرأ تحسن مطرّد على صحتي وكنت أتبين الفرق بين كل رحلة صيد أقوم بها وأخرى. فقد أكسبني الهواء النقي

(٧٩) إنتشر في العام ١٥٢٣ وبلغ فتكه الأوج في ١٥٢٤ ومات به خلق كثير.

الطلق مناعةً وبث فيَّ نشاطاً وأنا بطبعي من ذوي الأمزجة الصفراوية[٨٠] ولذا أحسست بإنبساط وإنشراح جراء هذه الرياضة ووجدت نفسي أحسن عملي وأتقنه أكثر لو مما كنت أقضي سائر أوقاتي في الدراسة والعمل، وكيفما كان فقد وجدت بندقيتي تربحني أكثر مما تخسرني وكانت الى جانب هذا سبباً في تعرّفي ببعض جامعي التحف الأثرية ومصادقتي لهم، هؤلاء كانوا يحومون حول الفلاحين اللومبارديين ويلازمونهم أثناء حرثهم بساتين الكرم في موسم زيارتهم لروما. هؤلاء الفلاحون كانوا حين قلبهم التربة يعثرون دائماً على ميداليات أثرية وخواتم وأحجار كريمة كالزمرد والزفير والألماس والياقوت ويتفق للجمّاعين القناصة أن يحصلوا على هذه اللقى واللقطات بالثمن البخس فآتي أنا أحياناً - بل في كثير من الأحيان لأبتاع من هؤلاء القنّاصة وأدفع بالكراون الذهبي بقدر ما دفعوا هم بالگويلو.

بهذه الصفقات - وبصرف النظر عن الربح الطائل الذي كنت أجنيه وقد يبلغ أحياناً عشرة أضعاف الأصل- بنيت أفضل العلاقات مع كلّ كرادلة روما تقريباً وسأذكر فحسب واحدة من أبرز وأندر هذه اللُّقى: وقع في يدي بين عاديات مختلفة رأس دولفين بحجم حبّة الفول. التي تستخدم للإقتراع[٨١] تقريباً. وكان الرأس دقيق الصنع للغاية غير أن الطبيعة أظهرت تفوّقها على الفن بنفاسة الزمردة نفسها وكان لونها عجيباً إلى درجة إن الرجل الذي إبتاعها منيّ ببضع عشرات من الكراونات جعلها فصاً في خاتم كحجرٍ كريمٍ إعتياديّ ثم باعها بمئات.

وثمّ حجر كريم من نوع آخر: رأس إنسان نُحت من أنفس وأندر ماوجد في الأرض من الياقوت. وفيه تستوي قيمة الفن بقيمة المعدن وحجمه بقدر البندقة الكبيرة. نُحت بشكل دقيق رائع لرأس يمثل (مينرڤا)[٨٢] وثم أيضاً حجر آخر مختلف وهو على شكل ميدالية تمثل هرقل وهو يربط رؤوس (التنين Cerberus) الثلاثة نُحتت بشكل متقن فبدت آية من آيات الفن حتى لم يسع (ميكالنجلو) نفسه إلاّ الإقرار بأنه لم ير شيئاً بمثل هذا الجمال. ومن بين عدد من الميداليات البرونزية التي إقتنيتها. واحدة نُقش عليها رأس (جوپتر) وهي أكبر من أية ميدالية شاهدتها والرأس بالغ حدّ الكمال والدقة. بإمكاني الإسترسال الى ما لانهاية حول هذه الشؤون إلا إني أكتفي بهذا خشية الإملال. وسأعود بالحكاية الآن الى الوراء قليلاً. لكني لن أشذّ عن الموضوع. كما قلتُ قبلاً كان الطاعون قد غزا مدينة روما وفي أثناء ما كان إعصاره يهبّ. ظهر على المرسح طبيب عظيم الشأن يدعى (جياكومو دا كاپري Giacomo da Capri)[٨٣]. هذا الرجل القدير إضطلع الى جانب معالجة الأمراض الأخرى بعلاج

(٨٠) هو الماليخوليا بتعبير الطب القديم أي السوداوي المزاج أو طبع الكآبة.

(٨١) كان الحجر الملون أو حبات الفاصوليا أو الفول تستخدم لإعطاء الأصوات في الإقتراعات والإنتخابات العامة، بسبب تفشي الأميّة في الزمان الغابر.

(٨٢) إلهة الحكمة في الأساطيراليونانية.

(٨٣) جياكومو برناريودي كاپري طبيب وجراحي مشهور وأستاذ في جامعة بولونيا. توفي في فرار وأوصى لدوقها بتركته (أنظر بقية حكاية الأواني فيما يلي).

مرضى داء السفلس(*) في أخطر مرحلة من مرضهم. وإتفق أن هذا المرض كان مغرماً بالكهنة في روما ولاسيما الأثرياء منهم. فلما ذاع نبأ هذا الطبيب النطاسي سارع يصرّح بأنه قادر على شفاء المرضى بهذا الداء مستخدماً طريقة مستحدثة عجيبة هي طريقة التبخير. لكنه كان يصرّ على دفع الأجر قبل أن يباشر العلاج. وكانت أتعابه لاتحسب بالعشرات بل بالمئات من الكراونات.

هذا الرجل الكفوء كان يعرف الكثير في فنّ التصميم. وإتفق ذات يوم إنه كان يمر من أمام دكاني فلفت نظره بعض الرسوم مبعثرة هنا وهناك ومن بينها تصاميم لأوانٍ صغيرة جميلة من وحي خيالي وإبداعاتي عملتها لمجرد قضاء الوقت والتسلية كانت تختلف إختلافاً بيناً عن كل ما شوهد من قبل. فسألني عما إذا كنت أرغب في صنع بعض الأواني الفضيّة وفق تلك التصاميم. وإغتبطت بهذا العرض لأن إختياره كان وفق هواي ودفع لي أجوراً جيدة إلاّ أن الشهرة التي أصبتها منها كانت أعظم من الأجر بمائة مرة أو أكثر. إذ حكم جهابذة المشتغلين في الصناعة بأنها أبدع ما شاهدوا من أمثالها وأجمل صنعاً. أنجزتها له فسارع الى عرضها لأنظار البابا ثم رحل عن المدينة في اليوم التالي.

كان من العلماء الأفذاذ. وإنك لتستمع منه السحر المبين عندما يتحدث في مسائل الطبّ. وقد رغب البابا في أن يضمّه إليه، فأجاب إنه لن يرتبط بخدمة أي إنسان في الدنيا. ومن يريده عليه أن يقصده. لقد كان شيطاناً ماكراً في الواقع إذ كان مدركاً تماماً صواب ما يفعل حين غادر روما. فبعد مرور عدة أشهر ساءت حالة كل من تولى شفاءهم الى الدرجة القصوى ولو بقي لفتكوا به.

قام هذا الطبيب بعرض الأواني التي صنعتها له على عدد كبير من النبلاء ومنهم صاحب السموّ دوق (فيرارا). وأخبرهم بأنه حصل على الإنائين من أحد النبلاء الكبار في روما بمثابة أجرٍ إذ قال له إن وفقّتُ الى شفائك فسأتقاضاك هذين الإنائين. فأجاب النبيل المزعوم إنهما من الآثار القديمة وإن له أن يطلب مايشاء من المال وسيدفعه له بدلاً عن الإنائين. وقال الطبيب إنه تصرف بعد ذلك كمن لايريد أن يحقق الشفاء للنبيل .فأضطر هذا الى التنازل عنهما له.

قصّ عليّ كلّ هذا في (فرارا) السيد (البرتو بنديديو Alberto Bendidio) الذي عرض عليّ بكلّ مهابة وإعتزاز تقليداً من الجبس لهما يطابق الأصل. فإنفجرت ضاحكاً ثم أقفلت فمي ولم أنبس بحرف.

(*) السفلس كظاهرة مرضية وكموضوع لقصيدة شعرية باللغة اللاتينية نظمها في العام ١٥٣٠ (جيرولامو فراكاستورو Girolamo Fracastoro) الشاعر والمثّال والفيلسوف المنطقي والجغرافي والطبيب ذو الشهرة. كانت نظريته الجرثومية حول الأمراض مرحلة حاسمة في تاريخ الطب الپاثولوجي. قال عنه البارون فردريك ڤون همبولت عالم الطبيعة والنبات الألماني (١٧٦٩-١٨٥٩) انه سبق عصره بما ملكه من مواهب وانه وليوناردو داڤنشي في هذا المقام صنوان. عنوان القصيدة "سفلياد" وهي في ثلاثة آلاف بيت من البحر السداسي. قُدمت بهذه العبارة" قصيدة إلهية بقلم ابرز شاعر منذ ڤرجيل مهداة الي صديقي الڤينيسي پييترو بمبو Pietro Bembo". في القسم الثالث من هذه الملحمة الشعرية أتى فراكاسترو الى كيفية تعرف الأسپان على العالم الجديد منتقلاً الى قصة وقوع الشاب الراعي المدعو سفلوس Syphilus ضحية هذا المرض بإرتكابه خطيئة الزنا في قصيدته. وبوصفه أول المبتلين به. ومن إسمه جاء إسم المرض المشهور. إلاّ أن الناظم كان له أحياناً يستخدم في قصيدته بديلاً أو تركيباً مزجيّاً هو "السفلس" أو "الداء الفرنسي" ومن هذا الأخير جاء إسمه الدارج عندنا "الافرنگي". وسنجد فيما بعد أن چلليني أُبتلي بهذا المرض.

فلاحت على وجه السيد بنديديو علائم الإنفعال وكان شديد الزهو والإعتداد بنفسه وسألني بحدّة:
- أتضحك عليهما اذن؟ ثق إنه لم يولد إنسان خلال السنوات الألف المنصرمة قادر على تقليدهما فحسب.

وكتمت الأمر خشية أن أحطّ من قدرهما وأصيب سمعتهما. وأبديت إعجابي بهما وأنا ذاهل[٨٤]. وفي روما نفسها صرح لي عدد كبير من النبلاء بعضهم أصدقاء لي، بأنهم يميلون إلى الإعتقاد بأن هذين الإنائين هما من أنفس الآثار القديمة، فجرّأني هذا على الإعتراف بأنهما من صنع يدي. ولما أبوا تصديق قولي كان عليّ إثبات ذلك الإدعاء بعمل تصاميم أخرى جديدة. لم تكن كلمتي بحد ذاتها كافيةً لأن (جاكومو) ببعد نظره وسعة حيلته أصرّ على أن يصادر مني التصاميم الأصليّة. ولقد جاءني من هذه العمليّة الصغيرة ربحٌ كثير.

إستمر الطاعون يصول ويجول عدة أشهر. وبقيت سالماً في حين توفي به كثير من أصدقائي لكني سلمت من العدوى وتمتعت بالصحّة. وإتفق أن صاحباً لي جاء الى داري في ليلةٍ من الليالي بصحبة بغيّ بولونية تُدعى (فاوستينا) لتناول طعام العشاء. وكانت بارعة الحسن إلاّ إنها في حدود الثلاثين. وكان يصحبها وصيفتها الصغيرة التي يتراوح سنها بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة. ولما كانت (فاوستينا) مختصة بصاحبي فقد قررت أن لا أقربها ولو أعطيتُ ملك الدنيا مع إنها صرحت بحبها الجنوني لي إلاّ أني ماكنت لأخون ثقة صديقي. على إني بعد أن آويا الى فراشهما، قمت الى الصغيرة فضاجعتها وما كان أحلاها وأشهاها. ولو علمت بها سيدتها لأقامت عليها الدنيا وأقعدتها. في تلك الليلة قضيت ساعات هنيئة رائعة لاتُقاس بما كنت سأقضيه مع (فاوستينا).

في اليوم التالي عند وقت الغداء وجدت نفسي خائر القوى متهالكاً كأني مشيت أميالاً. وعندما حاولت الأكل دهمني صداع شديد وفي عين الوقت إنتبهت الى ورمٍ دمليّ في ذراعي اليسرى والى دمّل فوق رسغي اليسرى فساد الهلع ساكني الدار وفرّ صديقي وصاحبته البقرة السمينة والصغيرة لايلوون ولم يبق معي غير صبيّ دكان بائس أبى إلاّ مُلازمتي. شعرت بإختناق وعُسر تنفس حول قلبي وأيقنت بأني هالك لامحالة. وإتفق أن والد مساعدي في الدكان مَرّ أثناء ذلك بالقرب من الدكان. وكان طبيباً مقيماً عند الكردينال (ياكو كاچي[٨٥] Jaco Cacci) فأسرع إليه أبنه وناداه صائحاً:
- تعال يا أبي والق نظرةً على (بنڤنُوتو). فقد أصابته وعكة وهو طريح الفراش.

فدخل المنزل وهو يحسب أن ما بي عارضاً بسيطاً لاغير. وجسّ نبضي وبعد أن رأى ولمس ماكان يفضّل أن لايرى أو يلمس، إلتفت الى إبنه وصرخ به:
- قبّحك الله من ولدٍ عاق! فقد أوردتني موارد التلف. كيف أستطيعُ الدنو من الكردينال الآن؟
أجاب الغلام قائلاً:

(٨٤) سترد قصة هذين الإنائين فيما بعد بتفصيل. وفيها أن چلليني لم يكتم عن صاحب النسخة بأنه هو الصانع بل صارحه فعلاً.
(٨٥) ربما كان المقصود هو الكردينال (ياكو پاچي).